

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 6 (2009) : 53 - 65
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

أسطورة الأمير في الرسم وفي الشعر الشعبي

محمد لعربي
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة تلمسان

مدخل:

تنتشر الأساطير في المجتمعات التقليدية انتشارا كبيرا، لا يستثنى منه فئات من مثقفيها، وليس لي هنا في مدخل هذه الدراسة– أن أعرف الأسطورة تعريفا شاملا، إذ تبدو الأساطير في أشكال متعددة، ولها غايات شتى ومختلفة – ولعلني أكتفي بما قاله القديس أوغسطين عندما سئل عنها:

إنني أعرف جيدا ما هي.بشرط ألا يسألني أحد عنها1 وإذا لم يكن من السهولة وضع تعريف جامع مانع للأسطورة فإن الواضح هو أن لها علاقة وطيدة بالتاريخ إذ يعيدنا التفكير في الأسطورة إلى التاريخ، إلى الماضي الغابر والأزمنة الخالية للإنسان.

إن التاريخ، باعتباره وقائع مضت في الزمان ولا يمكن استدراكها، يفتح مجالا للتفسير والتأويل كما يفتح أبوابا لميلاد الأساطير ومن تم فإن التاريخ قد يتحول إلى أساطير، كما أن الأساطير قد تصنع التاريخ وإذا كان التاريخ الحقيقي من صنع الأبطال، فإن الأمير عبد القادر كان أبرز أبطال المقاومة الشعبية الذين خلدهم التاريخ من جهة، وصنعت منهم الذاكرة الشعبية نماذج للبطولة الخارقة تلك البطولة التي تتجاوز حدود البشر وتقتحم عالم الأساطير.

لقد ترك الأمير في كل الأمكنة التي حارب فيها فرنسا آثارا مازالت تذكر به إلى يومنا هذا حيث أقيمت له النصب التذكارية، وسميت باسمه الأحياء، والقرى والشوارع.

غير أن الذاكرة الشعبية لا تقرأ تاريخ الأمير إلا بعيون الخيال فتحوله إلى أساطير، وتـ بح معارك الأمير حكايات بطولية، يمتزج فيها الواقع بالخيال، فإذا الأمير بطل يهزم جيوش العدو بعيونه، ويقفز من قمة الجبل بحـ انه ويختفي كالساحر من أمام أعدائه...إلى غير ذلك مما ترويه العامة هنا في غرب الجزائر ¹ وهناك في أماكن أخرى من الوطن

إنّ خروج الأساطير من التاريخ ظاهرة تنبّه لها علماء الأنثروبولوجيا والباحثون في تاريخ الأساطير، أو فلأقلّ، بعبارة أخرى إنّ البحث عن الأصول التاريخية للأساطير مذهب أنثروبولوجيّ فسّر لها به كثير من الأساطير العالمية وهو مذهب يقدّم على البحث عن أسس لها من الواقع ودعائم من التاريخ يجنح إلى ذلك أصحاب النزعة اليوهيميرية وتايلر، وغيرهم ممّن يلتمسون في الواقع والتاريخ أصولا للأساطير. ولئن كان هؤلاء يشتدون في طلب الأدلّة التاريخية، ويتعلقون أحيانا بأضعفها، فإنّ أساطير الأمير قد لا تحتاج إلى كبير عناء لكي نثبت صلتها بالتاريخ.

إن أسطورة الأمير عبد القادر هي تاريخه في شكله الشعبي.و هي بقدر ما تنتـ ـر له، وتضخم بطولاته، تغض الطرف عن انكساراته وتتجاهل مأساته الحقيقية، إنها بعبارة أخرى الوجه الجميل لتاريخ الأمير وسيتجلى هذا الوجه في أشكال فنية كالرسم والشعر الشعبي كما سأبين في هذا المقال.

ليس من قبيل الـ ـدفة أن تظهر في السنوات العشر الأخيرة مجموعة من الدراسات تناولت شخـ ـية الأمير عبد القادر من جوانبها المختلفة، وكأن الرجل يبعث من جديد وهو الذي " ملأ الدنيا وشغل الناس " في زمن كان عظماؤه يعدّون على رؤوس الأصابع. وليس من شك في أن هذه الدراسات تلتقي في نواح معينة من شخـ ـية الأمير، وتفترق في نواح أخرى. وهي مجتمعة يكمّل بعضها بعضا، ورغم ذلك يظل الأمير محتاجا إلى مزيد من الدراسات الجديدة القادرة على استكشاف ما ظل مجهولا في حياته، وإجلاء ما بقي غامضا فيها، ورفع اللبس عما كان مثار خلاف الدارسين فيما يمس كثيرا من القضايا المتعلقة بشخـ ـه وأدبه وفكره ومقاومته. ولعلّي أرى من الفائدة أن أذكر –في هذا المدخل – ثلاثا من الدراسات اتسمت بالاجتهاد وعميق البحث على ما بينها من تمايز واختلاف ؛ وهي دراسة الأستاذ برينو إتيان **Bruno Etienne2** من جامعة إكس بفرنسا، ودراسة الأستاذ عشراتي سليمان 3من

جامعة وهران، ودراسة السيدة بديعة الحسني حفيدة الأمير من دمشق4.

ظهرت هذه الدراسات ما بين سنتي **2000** و**2003**؛ فليس يف ل بينها إلا زمن ق ير. وليس من شك في أن الواحدة منها لم تكن لتعلم ما كانت تقول الأخرى، وعلى الرغم من اختلاف المناهج والغايات فيها، إلا أنها اشتركت في دراسة جانب الت وف في حياة الأمير وفكره. وهو ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا الجانب ما انفك يجذب الدارسين إلى استكناهه والخوض فيه. وليس لي هنا أن أعرض ما جاء في هذه الدراسات، غير أنّي لا أرى بدا من أن أشير إلى ما لفت انتباهي فيها؛ وهو أنها صدرت في بلدان مختلفة متباعدة، وقد أقام الأمير في كل واحد منها، لذلك يرى كل بلد أن له في الأمير حقا محفوظا في التاريخ. وقد كتب عن الأمير رجال من بلدان أخرى غير هذه وبلغات مختلفة. وهو ما يرفعه إلى مرتبة " العظماء " الذين أصبحوا ملكا للعالم، يكتب عنهم هنا وهناك، في الشرق وفي الغرب، وبكل اللغات. وحينئذ يتعدى الأمير حدود البلدان، فتسمى الشوارع والمدن باسمه، ويتجاوز حدود البشر لي بح أسطورة تتداولها الألسن مجردة من كل زمان ومكان.

لقد أصبحت الأساطير التي نسجها الخيال الشعبي حول بطولة الأمير ظاهرة لا ينكرها أحد، بل يجب أن أقول إن هذه الأساطير كانت مما يحكى عن بطولة الأمير وإنجازاته الحربية، لأنها اليوم في طريقها إلى الاندثار، ما دامت لم تقيد، ولم يحفل بها الدارسون، ولم تأبه لها الأجيال الجديدة من الطلاب والمهتمين بالتاريخ الشعبي للمقاومة، فليس من شك في أن الأجيال التي حملت في ذاكرتها هذه الأساطير وروتها قد مات كثير من أفرادها، والباقون منهم على قيد الحياة لن يعمروا طويلا، وبموتهم تكون هذه الأساطير مشرفة على الاختفاء، كما تختفي مظاهر الثقافات القديمة بعد أن يدركها ع ر الحضارة الجديدة. لكن اختفاء مظاهر هذه الثقافات القديمة من المجتمعات المعاصرة والغربية منها على وجه الخ وص لا يعني بالضرورة زوال التفكير الأسطوري واختفاء الأسطورة كبنية أساسية من بنيات الفكر القديم، فهذه المجتمعات ما زالت تعيش الأسطورة بأشكال أخرى، كما يذهب إلى ذلك ميرسيا إلياد، وإن كانت تبدو، مقارنة بالمجتمعات التقليدية، وكأنها قد تخل ت من قبضة الأساطير5.

ولا نعدم شهادات على ذلك فيما كتب عن الأمير، وأغلب الذين شاهدوه وكتبوا عنه لم يستطيعوا أن يخفوا إعجابهم به، وهم ينظرون إلى رجل يشعّ من عينيه بريق القدّيسين،

وتنطق ملامحه بأسرار الـ وفية، فيشعر المرء كأنّ له سلطانا عليه:

«Il a les manières et les façons d'agir et de parler d'un homme habitué à l'autorité et d'un grand seigneur … Il prétend déscendre du prophète. Il garde avec grand soin sa généalogie, et pour son peuple il est un sain personnage »6

وقد اجتمعت كتابات كثيرة واشتركت في صنع الـ ورة الأسطورية لشخـ ية الأمير بما أضفته عليه من سمات البطولة وأمارات القداسة، وبما أوردته من وصف دقيق مفـ ـل لمعالم وجهه ومظاهر جسمه.

وحسب القارئ أن يطلع على المقدمة القـ يرة التي وضعها" شرشل " لكتابه "حياة الأمير"، ليدرك إلى أي حد كان الأمير يوحي إليه بمعاني البطولة والعظمة ويملؤه بمشاعر الإعجاب والاندهاش.

فقد كتب الجنرال "بوجو" إلى أمينه الخاص يقول:

« ألم تعلم يا فاليوت أن حاكم الجزائر يحتاج إلى سياسة قوية، لأن الأمير عبد القادر خـ ـم صنديد، ومقارع عنيد لا يخشى بطش الجيوش الفرنسية ولا ينظرها بعين الاعتبار 7.»

ومثل هذه الـ ـوص التي وصفت الأمير بالبطل الذي لا يقهر وبالمحنك السياسي كثير، نكاد نعثر عليه في كل ما كتب عن تاريخه، وفيما اعترف به أعداؤه، ورجال السياسة الفرنسيون إبان مقاومته وبعدها. غير أن بعض هذه الكتابات استطاع أن يتجاوز هذا المستوى من التناول الوصفي لشخـ ية الأمير، مستوى الإعجاب، المفعم بالانبهار إلى مستوى الإعلان الـ ـريح عن ميلاد شخـ ية الأمير الأسطورية. وقد ظل هذا المستوى محـ ـورا في إشارة مؤرخ، أو في تلميحة كاتب، ولم يحاول أن ينفذ بالتحليل إلى أعماق هذه الشخـ ية الجديدة التي بدأ الأمير يكتسبها عند العامة من الناس وعند مثقفيهم على حد سواء. وغير خاف أن دراسة شخـ ية الأمير الأسطورية لم تكن يوما من مهمة المؤرخ، ولا غاية من غايات الذين كتبوا عن فكره وأدبه وأرخوا لسياسته؛ لذلك لم ترد الإشارة إلى هذه الشخـ ية عند كل هؤلاء إلا من باب الإحساس بوجودها، أو من باب إشعار القارئ بوجود هذا الأمير الأسطوري يسير إلى جنب الأمير الحقيقي. وهو الإحساس ذاته الذي حملني على اقتفاء أثر هذه الشخـ ية التي لم تتضح معالمها عند من أشاروا إليها، ولكن

أف حت عنها الذاكرة الشعبية، وحمّلها الخيال العامي حقائق من التاريخ.

ولقد أشار الأستاذ عشراتي سليمان – بعد بول أزان بنحو قرن – إلى أن أسطورة الأمير قد ولدت فعلا ؛ ولدت من تطلعات الجماهير إلى بطل كامل يحقق أحلامها والآمال التي تشرئب إليها:

«أحيانا تتناغم فواعل الالتحام والبذل والبطولة في أوساط الجماهير، فلا يلبث الوضع أن يتمخض عن ميلاد البطل القومي الذي يتقدم المسيرات الكبرى، ويكتسح الأرجاء، وأحيانا تتساوق جهود وتطلعات الجماهير المدنية والسياسية المشتركة وتهفو إلى أفق من الكمال فيكون الحاصل ميلاد أسطورة سليمة وظهور الرجل الرمز الذي يجسدها على نحو ما جسدها غاندي ومن سار على خطاه 8.»

و بالرغم من أن إشارة الأستاذ عشراتي إلى أسطورة الأمير لم تكن سوى إشارة عابرة، إلا أنها تحمل في طياتها دلالات عميقة، فهي أسطورة ولدت فعلا في الغرب الجزائري أو هناك في مكان آخر من أرض هذا الوطن الشاسع. وهي أسطورة سليمة مكتملة النضج، قوية الرمز إلى من يمكنه أن يمثل " الكمال البشري " الذي ما انفكت الجماهير تهفو إليه وتحلم به.

الفنّ مطيّة الأساطير:

الفن كلمة يختلف مدلولها من مجتمع إلى آخر ومن ثقافة إلى أخر. ونجد للفن أكثر من تعريف لو حاولنا حـ ـره في تعريف واحد. ويمكن القول إنه ظاهرة اجتماعية ثقافية تقوم على التعبير الجميل عن الأحاسيس والعواطف والمشاعر. ولعل اختلاف عناصر الفن من ثقافة إلى أخرى عائد إلى اختلاف هذه الثقافات في تحديد الجمال نفسه.

لقد اضطلع الفن منذ القديم بالتعبير عن الأساطير وتخليدها فقد ترك الإنسان القديم صورا للحيوانات على جدران الكهوف والمغارات قبل أن يعبر عن أساطيرها شعرا وغناءا.

"ترجع أقدم الأعمال الفنية إلى العـ ـر الحجري القديم الأعلى وقد وجدت مرسومة في كهوف فرنسا وإسبانيا وإيطاليا واستمرت محتفظة بألوانها الأصلية بفضل ثبات درجة الحرارة والرطوبة "9

لقد كان الرسم أول أشكال التعبير عن الأسطورة القديمة وذلك أول اضطلاع للفن

والرسم بمهمة التعبير عن الأساطير وتخليدها عند الشعوب البدائية.

وترتبط الأسطورة بالفن منذ القديم في شكل أغاني البدائيين الذين كانوا يقيمون الطقوس مرددين الأغاني التي لم تكن سوى أساطير كان أسلافهم يرددونها من قبل**10**.

وإذا كان الفن البدائي قد عبر عن الأسطورة وهو يعتقد أنها الحقيقة أو الواقع، فإن الفن الحديث – من ع ـر النهضة إلى اليوم، على وعيه بحقيقة الأسطورة، لم يستطع عنها انفكاكا. يرى "توماس مان" أنه في الوقت الذي "تعتبر الأسطورة في حياة الجنس البشري مرحلة قديمة وبدائية، فإنها في حياة الفرد مرحلة متقدمة وناضجة " **11** ويعد موقف "يونغ " المناوئ للفرويدية قريبا مما رآه " توماس " إذ يرى أن:

"الأسطورة أكثر نتاج البشرية الفنية نضجا" **12** لقد أصبح الفن يستوحي من الأسطورة كثيرا من مواضيعه ويستلهم منها معانيها القديمة محاولا ربطها بالواقع الذي ينطلق منه.

إذا كان الفن متعدد الأشكال، مختلف الأنواع، بإمكانه أن يحتوي الأسطورة في كل نوع من أنواعه، فإننا في هذا الموقف سنشير إلى تجلي أسطورة الأمير في نوعين من أنواعه وهما الرسم والشعر الشعبي.

تعبر اللوحة الفنية عن الأسطورة كما تعبر عنها الق ـيدة الشعرية. وإذا كانت اللوحة تعبيرا جامدا لا يتحرك في الزمان، تعبيرا عن لحظة واحدة من لحظات الأسطورة، فإن الخيال بإمكانه أن يعود بالأسطورة إلى زمانها ومكانها الأصليين. إن طبيعة اللوحة تخت ـر الأسطورة اخت ـارا شديدا وتجعلها لحظة زمنية واحدة.

"فإذا أمكن عرض الأسطورة ذاتها في لوحة بالجودة نفسها التي تعرضها ق ـيدة، فسيكون ثمة ما يحملنا على ت ـديق (سي.س.لويس) في مقولته بأن الأساطير جميعا "خارج نطاق الأدب" وأن "قيمة الأسطورة ليست حتما قيمة أدبية، كما أن تثمينها ليس تجربة

أدبية حتما "إن الحوادث التي تسجلها الأسطورة أهم عند "لويس" من الأشكال التي صيغت بها " **13**. ومن ثم يجب أن ندرك أن اللوحة التي رسمها " أوجين دولاكروا" للأمير قد تجاوزت حدودها التاريخية، وجفت بها هالة الأسطورة، خاصة وأنّها ما زالت معلقة إلى الآن في المقر الاجتماعي للماسونية بباريس، كما يذكر الروائي الكاتب رشيد بوجدرة**14**. لقد زار

"دولاكروا" الجزائر محملا بهوس الشرق، ليلتقط أساطيره ومناظره العجيبة التي "توفر ثروة هائلة للرسامين إذ إن في كل شارع، وعند كل دكان داخل السوق صورة تنتظر من يرسمها"15

لقد كان "دولا كروا" شديد الإعجاب بالفروسية وأبطال الحروب. ولا ريب في أن رسم صورة الأمير كان يمثل له تخليدا للبطل الذي أذهل الفرنسيين، وجعل دولة بأكملها تترقب أخباره، وتنتظر الإمساك به. لقد كان الأمير في نظر "دولا كروا" شخ ية فذة من شخ يات القرن التاسع عشر الذي انتشر فيه الرسم الاستشراقي بأوروبا انتشارا كبيرا، وأصبح واجهة ثقافية تضع الشرق وأساطيره في لوحات مرسومة تعرض على المشاهد الغربي عالما غريبا عنه يسمى الشرق.

يبدو وجه الأمير في كثير من اللوحات التي وضعت كوجه قديس يشع من عينيه معاني الحب ومعالم الذكاء والفطنة. وقليلا من ما تبدو وجهه وجه رجل حرب وعنف «فهو منشرح النفس جبلة، طبق السريرة مستبشر...لكنه من جهة أخرى... يعيش يقظة ذاتية يطغى عليها وازغ الانقباض لأن سيكولوجيته قد ضيقت بمؤثرات التنشئة الت وفية الاستغراقية»16.

وب فة عامة فقد كان الشرق عند "دولاكروا" وعند غيره من الرّسامين مستودع الأسرار، ومهد الأساطير.

«La révélation de l'orient est un des faites importants sinon essentiels , de l'histoire de la peinture française au XIX siècle …. Il est assez significatif ce pendant de voir un Dela croix invinciblement attiré par les spectacles et les sciences d'orient» 17

تنقل الأساطير عن طريق الفن الأدبي، وعن طريق فن الرسم من وطن إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى. فهي من ثم " أكثر أنواع الأدب الشعبي تنقلا وارتحالا بين الأجيال

وبين الشعوب، وأكثرها توضيحا لحضارة الشعب وعقليته ،ووصف لبيئته ومجتمعه وأحداثه"18.

إن الأسطورة التي تنبثق من الواقع تشوهه، وتعرضه عرضا مختلفا عن حقيقته، إن الخيال هنا يتجاوز الواقع ليحلق به في عالم الأسطورة.

لم يكن "دولاكروا" هو وحده من رسم صورة الأمير فنحن نجد له عشرات اللوحات، وهو في هذه اللوحة يكاد يكون مختلفا عنه في لوحة أخرى، ولعل كل لوحة أنيط بها أن ترسم جانبا من جوانب شخ ية الأمير المختلفة، وهي الجوانب التي تتحد لتكون شخ ية الأمير الأسطورية. وليس ثمة بيت من بيوتنا لم تدخله صورة الأمير وإنك لتسأل الطفل ال غير الذي لا يعي بعد معنى الاستعمار، عن هوية هذا الرجل الذي علقت صورته على هذا الجدار، أو رسمت على ذلك الطابع البريدي، فيجيبك بأنه الأمير عبد القادر، وهو لا يعرف شيئا عن حياته وتاريخه ونحن عندما نقف أمام صورة الأمير، سواء كانت من رسم دولاكروا أو من رسم غيره، ينتابنا ذلك الشعور الغامض الذي يتجاوز درجة الإعجاب إلى حالة نفسية يمتزج فيها الحب والتقديس والإجلال. إنها حالة الواقع تحت تأثير الأسطورة، وهي حالة نحس بها ولكن نعجز عن التعبير عنها. ونحن لا نبتعد هنا، عما قاله القديس أوغستين عندما سئل عن الأسطورة: "إنني أعرف جيدا ما هي بشرط ألا يسألني أحد عنها "19 أو عما أشار إليه (ولاس ستيفن): "إنها تكاد تنجح في تمنعها على الإدراك"20.

يخلد الفن الأساطير بإخراجها من إطارها الواقعي المحلي إلى عالم الشهرة الواسع وعندما ت بح اللوحة ذائعة ال يت، عالمية الأبعاد، فإنها ت بح موضوعا غنيا للخيال البشري وقد يتعرض الفنان نفسه إلى عملية "الأسطرة" بمرور الزمن وتقادم أعماله، فيتحول إلى أسطورة، وينسج الخيال الشعبي حوله حكايات، ويضع للوحاته تفسيرات مختلفة متضاربة، ولسنا نعدم أمثلة فقد كان الفنان الإيطالي "ليوناردو فيسني"، أحد هؤلاء العبارقة الذين ساهموا في نهضة أوربا ، ولم ينج من سطوة بعض الآراء الخيالية على شخ ه، وبعض أعماله، تقول "ماري بونابرت" في مقدمة ترجمتها لكتاب فرويد عن الفنان الإيطالي: «وبدأت الأسطورة تتشكل حول المعلم العجيب، وهو بعد على قيد الحياة، ولكنها

أسطورة تحتفظ بقيمتها كشاهد على تفكير الناس في ذلك العهد»21

ويظل الفن على اختلاف أشكاله ومظاهره وسيلة تسافر بها الأساطير إلى أنحاء العالم وتستوطن مختلف الثقافات.

أسطورة الأمير في الشعر الشعبي:

ويساهم الشعر الشعبي إلى جانب الرسم في صناعة الأساطير، وأسطرة الأبطال

وتخليدهم، فهو أكثر نزوعا إلى الأسطورة، أو هو على الأقل، أكثر تشبعا بالفكر الخرافي وأميل إلى أن يكون حاملا للأساطير ولما يمكن للعقل أن يستبعده. ويمكن أن يكون للغته الخالية من ضوابط الشعر الف يح دور في تهويل المشاهد الموصوفة، والإفراط في المبالغات.

وقد ارتبط الشعر العامي الجزائري بأبطال المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي. فأفرد لهم كثيرا من ق ائده. وكان الأمير عبد القادر أحد هؤلاء الأبطال الذين اخت هم هذا الشعر بمكانة سامية، من خلال تأريخه لحروبهم، وتمجيد سيرتهم الحربية في مواجهة الاستعمار. وقد تناولهم هذا الشعر بوصفهم أبطالا غير مألوفين، أنجزوا البطولات الخارقة، وحققوا الانت ارات العجيبة التي يعجز عن تحقيقها غيرهم من الأبطال.

لا يتقيد الشعر – عندما يتخذ من الأبطال موضوعا له – بتاريخ هؤلاء الأبطال، بقدر ما يحاول التحرر من رقابة هذا التاريخ، والتخلص من قيوده. إن الشعر ليس تاريخا، كما أن الفن ب فة عامة لا يمكن أن يعوض التاريخ. يستثمر الشعر التاريخ فيتخذ منه موضوعات له. في حين يستطيع التاريخ أن يجعل من الشعر وثيقة يستند إليها ومرجعا ثانويا يعود إليه ويستشهد به. وعندما لا يتقيد الشعر بواقعية التاريخ، فإنه يتجاوز أحداثه مضيفا إليها من خياله تارة ومُعدِلا أو مُؤَولاً لها تارة أخرى، وبتجاوزه لمنطق التاريخ يقتحم الشعر دائرة الأساطير.

يقول رولان بارت **Roland Barthes**:

«كل شيء بإمكانه أن يكون أسطورة «**"Tout peut être Mythe"**22.» لأن العالم يوحي لنا بما لا نهاية له من الأفكار. وكل شيء من العالم يمكن أن ينتقل من وجود مغلق، أخرس، إلى وضع كلامي مفتوح على استعمال المجتمع لأنه لا قانون طبيعيا أو غير طبيعي، يمنع من الحديث عن الأشياء»

(Car l'univers est infiniment suggestifs. chaque objet du monde peut passer d'une existence fermée , muette, à un état oral , ouvert à l'appropriation de la société , car aucune loi , naturelle ou non , n'interdit de parler des choses)23

إن شجرة هي شجرة، كما يقول "رولان بارت" **Un arbre c'est un arbre**

ولكن عندما يتعلّق الأمر بشجرة معينة فإنّها تكون شجرة مق ودة بذاتها ولا شك في

أنها تختلف عن باقي الأشجار، لعلاقة لها بالتاريخ مثلا فالشجرة التي بويع تحتها الأمير قد خرجت من صنف الأشجار العادية، وأصبحت في أذهان الناس شجرة مقدسة جديرة الإجلال والتقديس. لقد انتقلت من وجودها المغلق الـ امت –كما يقول بارت– إلى وجودها الناطق بالتاريخ، المليء، في الذاكرة الجماعية بالـ ور والخيالات.

ومن أوضح الدلالات الأسطورية في الشعر الشعبي شجاعة الأمير. إنها الـ فة الملازمة له التي لا تكاد تفارقه لحظة في ذهن من يقرأ تاريخه أو يتأمل صورته. ولعلها تطغي على صفاته الأخرى. فالأمير الشجاع أشهر من الأمير الشاعر ومن الأمير المتـ وف. .وأغلب العامة يعرفون أنه كان شجاعا بالسلاح في دفاعه عن أرض الوطن، بيد أن قليلا منهم يعرف انه كتب في التاريخ والفلسفة والأدب وعلم الكلام وفي غير ذلك.

الأمير عبد القادر شجاع ولد الأصول

ولد البادية والـ حراء أهل الكرم المخلـ ين

القيطنة قريتو أهل النيف ورجالها مخلـ ين

وتنتقل النزعة الأسطورية بالأمير من وطنه إلى أرض الشام حيث استطاع بمفرده أن يخلص آلاف المسيحيين من بطش المسلمين، ويتجلى ذلك واضحا في هذه الأبيات التي تذهب في وصفها لبطولة الأمير وقدرته مذهب المبالغة والتضخيم:

عاش حوادث سوريا مع لبنان ماحبش القتال

قام بدور الشجعان وحقن دم الشعبين

نجّى سلك النـ ارى، وقف هذا القتال

خمسطاش ألف نجاهم وسجن المتهمين

ولا تختلف القـ يدة عما تذكره بعض الكتب التي أرخت لسيرة الأمير بالشام في أنّ عدد المسيحيين الذين أنقذهم الأمير من بطش المسلمين هو العدد المذكور في القـ يدة. ورغم جهلنا للطريقة التي استطاع الأمير بها أن ينقذ هؤلاء المسيحيين على كثرتهم، إلاّ أنّ الذاكرة الشعبية لا تميل – في العادة – إلى الشكّ في قدرة رجل واحد على إيواء هذه الجماهير، ذلك لأنّ

صورة البطل – المتمثل في الأمير– أصبحت من المثالية بحيث لا يمكن الشك في إنجازاتها الخارقة. فالرجل الذي قاوم المستعمر وانت ـر عليه في معارك شتّى بسلاح أضعف من سلاحه، لا يستبعد أن يكون قادرا على إنقاذ خمسة عشر ألفا من المسيحيين المهددين.

إن شجاعة الأمير في الشعر الشعبي ت ـبح قدرة خارقة. وبطولة نادرة كالتي أضفاها الفكر الأسطوري على شخ ـية علي بن أبي طالب وهو يحارب الكفار. لقد قاتلهم ببسالة وأسال دماءهم. وارتفعت دماؤهم عن الأرض كما تقول الأسطورة، حتى بلغت صدر جواده. وكما صنع علي بالكفار سي ـنع الأمير بكفار الفرنسيين. لقد أراق دماءهم على الأرض فكونت وديانا. إنها وديان من الدماء تجري، ورؤوس تتطاير، وجثث يقذف بها هنا وهناك. إنها الـ ـورة التقليدية للبطل الذي يخترق الـ ـفوف هازما كل من يعترض طريقه. ومنكلا بأعدائه.

وبلغة هي أقرب إلى لغة الواقع منها إلى لغة الأسطورة، حاول الأستاذ عشراتي سليمان أن يكشف عن مكامن العظمة في بطولة الأمير:

«لعلنا لا نوصم بالسذاجة إذا ما تساءلنا عن مكمن عظمة الأمير عبد القادر في خريطتنا التاريخية الوطنية، وعن الخ ـائص والامتيازات التي تأتت له حتى يغدو حائزا على هذا الاستحقاق الذي لا يكاد يعترض على مشروعيته معترض ؛فقائمة المجاهدين الذين احترقوا في نار العراك دفاعا عن الحوزة والدين يعدون بعشرات الألوف... فكيف يرسو الرجحان على شخص الأمير فيفوز بـ ـدارة المستأهلين ويغدو اسمه علامة رامزة للوطن جامعة لمواجد العزة فيه؟ وانه لمن الثابت إن الزعامات الكاريزمية تستمد على نحو أو آخر بسالتها من التربة والمحيط البشري الذي تظهر فيه.» 24.

"إن الخطاب الأدبي الشفوي الجزائري تحول في كثير من الحالات إلى خطاب تاريخي، ولا نق ـد هنا دلالته التاريخية في ارتباطه بالسياق التاريخي فقط إنّما نق ـد أداءه لوظيفة الخطاب التاريخي الموجهة للأجيال اللاحقة" 25

أنّ هذا الخطاب الشفوي، والأسطورة نوع من أنواعه "لا يكتفي بنقل المعلومات إنّما يعمل على إنتاج وقائع اجتماعية وحالات نفسية جديدة"26 وهو في هذا التجديد الذي يشير إليه الأستاذ بورايو يتمكن من إنتاج الأساطير.

إن الفن في شكله المكتوب، وفي شكله المرسوم وفي أشكاله الأخرى – يبدو أقدر من التاريخ على تخليد الأسطورة. وقد يستفيد الفن من الأسطورة كما تستفيد الأسطورة من الفن، كلاهما يبعث الحياة في الآخر ويضمن له البقاء والخلود. ولعل ما تناله الأسطورة من الفن أكثر مما يناله الفن من الأسطورة من حيث انتشارها بين الناس على اختلاف أجناسهم وتأثيرها فيهم، إذ تسافر الأساطير إلى مواطن عديدة متجاوزة موطنها الأصلي، وتترجم إلى لغات أخرى، وتتداولها الألسن والثقافات.

الهوامش

[1]– ك.ك راثفين، الأسطورة، ترجمة جعفر صادق الخليلي عويدات، بيروت، ط1981،1 ص 9.

[2]–**Brunne Etienne: Abd.El.Kader, Histoire des Isthmes.Paris.Hachette.2003**

[3]– عشراتي سليمان الأمير عبد القادر السياسي دار الغرب 2002

–الأمير عبد القادر المتـ وف دار الغرب 2002

–الأمير عبد القادر الشاعر دار الغرب 2002

[4]– الأميرة بديعة الحسني الجزائري: فكر الأمير عبد القادر الجزائري، حقائق ووثائق، دمشق، دار الفكر ط1 2000

[5]–**Mircea Eliade, Mythes, Réves et Mysteres, Paris.Gallimard.1957 p26**

[6]–**Charles Henry. Churchill, La vie d Abdelkader.Traduction de Michel Habart Alger 1973 p11**

[7]– المرجع نفسه ص 43

[8] عشراتي سليمان الأمير عبد القادر السياسي، دار الغرب 2002 ص 28

[9] – مُحَمَّد الخطيب: الأثنولوجيا دمشق، دار علاء الدين، ط1. 2000. ص 204.

[10] **Mircea Eliade. Aspect du mythe gallimard 1963 p 31.32**

[11] – ك.ك – راثفين، الأسطورة ترجمة جعفر صادق الخليلي، عويدات بيروت ط،1 –1981، ص 92.

[12] – المرجع نفسه، ص 92.

[13] – المرجع نفسه، ص 96.

[14] – د. عبد الكريم بوصفـ ـاف، الأمير عبد القادر بين المحققين والنقاد، الحوار الفكري، مطبوعات منتوري قسنطينة، ص 141. توضيح:

ماسونية الأمير عبد القادر أسطورة نسجها الغرب حول شخـ ـية بطل المقاومة الوطنية، حاول تفنيدها مُحَمَّد الشريف سحلي في كتابه أباطيل فرنسية وحقائق جزائرية، تعريب حبيب شنيني، دار القـ ـبة للنشر، 2003، ص

24 – 57.

15 – رنا قباني، أساطير أوربا عن الشرق ترجمة صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ط1، 1988 ص 128.

16 – عشراتي سليمان: الأمير عبد القادر الشاعر، دار الغرب. 200 ، ص 150.

17 - G.Alazard. Eugène Dela croix 1: Revue Africaine , n° 69. Alger. 1928 , P.P.23 ,24.

18 – مُحَمَّد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، 1967، ص 17

19 – الأسطورة، مرجع سابق، ص 9.

20 – المرجع نفسه، ص 9.

21 - Sigmund Freud , Un souvenir d enfance de Léonard De Vinci, traduction de Marie Bonaparte Gallimard, Paris, 1982, 2ème éd, p 12.

22 - Roland Barthes, mythologie. Seuil,Paris 1975,P193

23 – المرجع نفسه، ص 194.

24 – عشراتي سليمان، الأمير عبد القادر السياسي، دار الغرب، 2001، ص 27. 28.

25 – عبد الحميد بورايو: البطل الملحمي والبطلة الضحية في الأدب الشفوي الجزائري. ديوان المطبوعات الجامعية، 1998. ص 22.

26 – المرجع نفسه، ص 22.